Archive of SID

مجلة اللغة العربية وآدابها
السنة ١٥، العدد ١، ربيع ١٤٤٠هـ
صفحة ١١٥ - ١٣٤ (مقالة محكمة)

Print ISSN: 1735-9767
Online ISSN: 2423-6187
https://jal-lq.ut.ac.ir/

دراسة أسلوبية لظاهرة التناوب في القرآن الكريم على أساس السياق المقالي والمقامي قراءة في سورة الأنعام المباركة

جواد محمدزاده[١]، صلاح الدين عبدي[٢]*، مرتضى قائمي[٣]

١. طالب دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة بوعلي سينا، همدان، إيران
٢. أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة بوعلي سينا، همدان، إيران
٣. أستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة بوعلي سينا، همدان، إيران

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٦/٨/٢٠؛ تاريخ القبول: ٢٠١٧/٤/١٩)

الملخّص

إنّ الأسلوبية منهج لساني يتناول النصوص الأدبية بالدراسة ومن أهم سماته هو استكشاف العلاقات اللغوية القائمة في النص والبحث عن الخصائص الفنية الجمالية التي تميز النص عن آخر وفي الإجراءات الأسلوبية، يلعب السياق دوراً هاماً في معرفة الظاهرة الأسلوبية؛ لأنّ السياق هو القاعدة الداخلية ينحرف عنها الأسلوب وهي التي تمنح الخروج على القاعدة اللسانية سمته الأسلوبية والتناوب هو ظاهرة أسلوبية تمثل خروجاً أو تحولاً عن النمط السائد في السياق وهو يعني إحلال كلمة -اسم، وفعل، وحرف- محل كلمة أخرى بشكل لا تنفي الكلمة النائبة معنى الكلمة المنوب عنها وإحدى فوائدها الرئيسة هي خلق الإيجاز في اللفظ والتوسّع في المعنى. قد سعى هذا المقال إلى أن يعالج "ظاهرة التناوب" بالدرس والتحليل على المنهج التحليلي - الأسلوبي؛ وأن يكشف عن مدى أثر السياق اللغوي وغير اللغوي في تفسيرها. إنّ أهمّ عناصر السياق اللغوي في كشف ظاهرة التناوب، هي القوانين المرجّحة النحوية لاسيما استعمال الحروف الجارّة وبنية الجمل العاطفية. تبيّن في هذا المقال أيضاً بأنّ التضمين النحوي هو أكثر أنواع التناوب انتشاراً في سورة الأنعام المباركة. أمّا في التناوب الوظيفي فتبين لنا بأن يكون الغرض الدلالي الجمالي في ورود مصدر بدل اسم الفاعل أو المفعول طلبا للمبالغة والتأكيد، ويخلق المصدر الاقتصاد اللغوي بسبب ما يحتوي من قلّة الحروف في بنيته.

الكلمات الرئيسة

الأسلوبية، العدول، التناوب، السياق.

---

* الكاتب المسؤول
Email: s.abdi@basu.ac.ir

www.SID.ir

Archive of SID

مقدمة

يعد التناوب من الظواهر اللغوية الهامة والذي يكمن هدفه الرئيسي في توليد معانٍ مبتكرة بالعدول عن النظام اللغوي أو الأصل وهو يعني إحلال كلمة محل غيرها مما يناظرها فتؤدي معناها وكما هو المعلوم من عنوان البحث، هذا البحث يعتمد على دراسة ظاهرة التناوب من منظور الأسلوبية وما الأسلوبية في ماهيتها إلا وصف للنص الأدبي حسب طرائق مستقاة من اللسانيات والمتتبع لمباحث الأسلوبية يدرك أنّ من أهم هذه المباحث ما يتمثل في رصد انحراف الكلام في نسقه المثالي المألوف. أمّا السؤال الرئيسي الذي نواجهه هو كيف نفهم أنّ في الجملة تناوب؟ ولماذا يلجأ المؤلف إلى هذه التقنية للتعبير عن مضمون ما؟ للإجابة عن هذا السؤال نكشف عن عامل هام وهو السياق؛ لأنّ الكلمات التي اختارها القرآن الكريم لا يمكن معرفة معانيها إلا بحسب السياق الذي وردت فيه، بمعنىً آخر لا يمكن كشف المعاني المتعددة للمفردة أو التركيب الواحد بعيداً عن السياق الحاضن لها سواء أكان سياقاً داخلياً (لغوياً) أو سياقاً خارجياً (المقام)، ومن هنا سعى الباحثون إلى تلمس أثر السياق في معرفة التناوب والذي يهمنا هنا هو أنّ التطور في الكلمة والتركيب من خلال التناوب لا بدّ أن يصحبه تطور في الدلالة جنباً إلى جنب؛ لأنّ كل خروج عن قاعدة التركيب هو خروج إلى معنى جديد. وبما أنّ التناوب أصبح ظاهرة أسلوبية في القرآن الكريم؛ فقد اخترنا سورةً من سوره الكريمة وعالجنا هذه الظاهرة فيها وخصصناها بالدراسة والتحليل. اتجه البحث في الإطارين: الإطار الأول وهو الإطار النظري ندرس فيه مصطلح الأسلوبية ونتحدث فيه عن السياق بشقّيه اللغوي وغير اللغوي ثم نتطرق إلى مصطلح التناوب ـ لغة واصطلاحا ـ ونكشف عن علاقته بعلم الأسلوب وسُلِّط الضّوء فيه على نشأةِ مفهومه عند المحدثين وبيان أشكاله وأنواعه، أمّا الإطار الثاني فهو عبارة عن التطبيق العلمي لما سبقت الإشارة إليه في الإطار الأول؛ حيث يتم البحث في سورة الأنعام المباركة؛ للكشف عن أسرار البنى التحتية بين السورة وآياتها.

أمّا أسئلة البحث فهي:

- ما هي أنواع التناوب في سورة الأنعام المباركة وأيّها أكثر انتشاراً في السورة؟
- ما هي جمالية التناوب والغرض الرئيسي من هذا العدول في النص القرآني؟
- كيف يؤثر السياق بشقّيه في معرفة التناوب وأيّهما أكثر تأثيراً لمعرفته واختياره؟

www.SID.ir

Archive of SID

أمّا فرضيات البحث فهي:

- إنّ التناوب بأشكاله الثلاثة له حضور مكثف في سورة الأنعام المباركة ومن بينها يتكرر التضمين النحوي أكثر من غيره؛ لأن تكراره يعني أنه سمة أسلوبية في النص.

- إنّ الغرض الرئيسي من التناوب هو الإيجاز والاختصار في الأسلوب كما أنّ له فائدة أخرى فهي التوسّع في المعنى.

- إنّ السياق اللغوي بما فيه من القرائن الإسنادية (علاقة المبتدأ بالخبر، الفعل والفاعل)، وقرينة التخصيص أي: (التعدية في المفعول معه)، وقرينة النسبة أي: (معاني حروف الجر التي بها تنتسب معاني الأفعال إلى الأسماء)، يساعدنا في معرفة التناوب، كما أنّ السياق المقامي (سياق الموقف) يدلّنا على معرفة الغرض الجمالي لهذا التناوب وكلاهما يؤثر في الكشف عن المعاني الكامنة.

خلفية البحث

هناك بحوث تناولت التناوب في الأفعال والحروف، نذكر منها:

- «*السياق القرآني والدلالة المعجمية*» كتبت هذا المقال د. ماجدة صلاح حسن، وطبع سنة ٢٠٠٧ في المجلّة الجامعة وهي مجلّة محكمة في العدد التاسع. أشارت الكاتبة فيه إلى مفهوم الدلالة والسياق وتطرّقت إلى مسألة تعدد المعاني للفظ القرآني الواحد تبعا للسياق، وأتت ببعض المفردات التي تأخذ المعاني المتعددة تبعاً للسياق.

- «التنوع الدلالي للمفردة القرآنية في ضوء السياق» كتب هذا المقال الكاتبان كاظم عبد فريح وعبد الحسن علي مهلهل، طبع في مجلّة جامعة ذي قار سنة ٢٠٠٨، في العدد الرابع. تطرّق الكاتبان في هذا المقال إلى المفردات التي تأخذ معاني جديدة في السياق وتوصّلا إلى هذه النتيجة بأنّ المفردات تختلف في عطاءاتها الدلالية، ويساعد السياق ـ في كثير من الأحيان ـ في توليد بعض منها.

- «*ظاهرة التناوب اللغوي بين المشتقات الدالة على الفاعلية والمفعولية والمصدر*»، هذا المقال كتبه مالك يحيا وطبع سنة ٢٠١٠م في مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، فصلية محكمة في العدد٢. تحاول هذه الدراسة أن توضح أن ظاهرة التناوب اللغوي التي وردت في النصوص اللغوية تشيع في العربية، إذ قد تأخذ صيغة صرفية ما الأحكام النحوية الدلالية لصيغة أخرى وتتبادل معها مبنى ومعنى.

www.SID.ir

Archive of SID

- «*حروف الجر بين النيابة والتضمين*»، كتب هذا المقال أحمد مطر المطية، وطبع سنة ٢٠٠٨م في العدد ١١٢في مجلة التراث العربي بدمشق. قد أشار الكاتب في هذا المقال إلى تعاريف التضمين والنيابة من قبَل النحويين والبلاغيين وجاء بأمثلة من القرآن الكريم.

الأسلوبية

بما أننا عالجنا هذا المقال من المنظور الأسلوبي فينبغي لنا التطرق إلى هذا المنهج في سطور فهي تبحث عن الخصائص الفنية الجمالية التي تميز النص عن آخر، أو الكاتب عن آخر، من خلال اللغة التي يحملها خلجات نفسه وخواطر وجدانه، قياساً على هذه الأمور مجتمعة، تظهر الميزات الفنية للإبداع، فمنها يمكن تمييز إبداع عن إبداع انطلاقاً من اللغة الحاملة لسماته بكل بساطة، ومن ثم فإن الأسلوبية تحاول الإجابة عن السؤال: كيف يكتب الكاتب نصاً من خلال اللغة؟ إذْ بها ومنها يتأتى للقارئ استحسان النص أو استهجانه. أشار شارل بالي وهو المؤسس الأول لعلم الأسلوب إلى أنّ الأسلوبية تنبسط على «رقعة اللغة كلها، فجميع الظواهر اللغوية ابتداء من الأصوات حتى أبنية الجمل الأكثر تركيباً يمكن أن تكشف عن خصيصة أساسية في اللغة المدروسة والوقائع اللغوية مهما تكون يمكن أن تشف عن لمحة من حياة الفكر بأكملها، منظوراً إليها من زاوية خاصة» (عياد، ١٩٩٨: ٣١) ولهذا فإن أهم المعايير التي تعتمد عليها الدراسة الأسلوبية في سائر المستويات اللغوية يمكن أن تجمل في الآتي: المنظور الإحصائي: ويطبق من خلال الاهتمام بمعدل التكرار لبعض العناصر اللغوية. إنّ التكرار ظاهرة لغوية لإرادة التوكيد والإفهام ويعدّ من الظواهر الأسلوبية التي تستخدم لفهم النّص وهو إحدى الأدوات الجمالية وفي دلالات متعددة. (محمدرضايي والحسيني، ١٤٣٨: ٥٥٧) مبدأ العدول: وهو يعني الخروج عن المألوف في استعمال اللغة إلى استخدام جديد، «فإنّ الأسلوب هو ابتعاد[1] عن الكلام المألوف والمستعمل، فقولنا سال ماء الوادي قول مألوف، أمّا قولنا "سال الوادي" فابتعاد عن المألوف وخروج عن المستعمل، وبالتالي نحن تجاه ظاهرة أسلوبية تعرف بالابتعاد» (ربابعة، ٢٠٠٣: ٤٨) مبدأ الاختيار: يرى بعض الباحثين أنّ اللغة المعينة هي عبارة عن قائمة هائلة من الإمكانات المتاحة للتعبير، ومن ثم فإنّ الأسلوب يمكن تعريفه بأنّه اختيار[2] أو انتقاء[3] يقوم به المنشئ لسمات لغوية معيّنة بغرض التعبير عن موقف معيّن. (ربابعة، ٢٠٠٣: ٣٤)

1. Ecart
2. Choice
3. Selection

www.SID.ir

Archive of SID

السياق والأسلوب

تعد نظرية السياق منهجاً من أهم مناهج دراسة المعنى في اللغة. فالدلالة الصحيحة للمعنى هي التي تكتسب من السياق، فالسياق يجمع المعاني المراد فهمُها، ويوصلها إلى ذهن القارئ، وفق قرائن لفظية ومعنوية تسير بالمعنى نحو الغاية المقصودة، فمعرفة المعنى المعجمي للكلمات لا تكفي «فمعنى الكلمة في المعجم متعدد ومحتمل، ولكن معنى اللفظ في السياق واحد لا يتعدد» (حسان، ١٩٧٣: ٣١٦).

أنواع السياق

إنّ دلالة السياق القرآني تشمل المقال المتمثل بالسباق واللحاق وتشمل الحال "المقام" فتكون دلالة السياق تنقسم إلى قسمين: ١. سياق المقال: ويعنون به السِّباق واللِّحاق. ٢. سياق الحال "المقام": ويعنون به ما يصاحب النص من أحوال وعوامل خارجية لها أثر في فهمه: كحال المتكلم، والمخاطب، والغرض الذي سيق له... أمّا سياق المقال[1] وهو يعني ذلك المعنى الذي ورد لهذه الكلمة في المعجم أي معنى الكلمة في الجملة أو العبارة أو بمعنى آخر المعنى الذي يفهم من الكلمة بين الكلمات السابقة واللاحقة لها في العبارة أو الجملة ويتمثل ذلك في العلاقات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية بين هذه الكلمات على مستوى التركيب فقد نجد كلمة ما يختلف معناها باختلاف الكلمات التي تكوّن معها جملة أو عبارة من ذلك مثل كلمة "أخذ" في الآيتين الكريمتين: ﴿**قُل أَرَأَيتُم إن أَخَذَ اللهُ سَمعَكم وَأَبصَارَكم**﴾ (الأنعام/٤٦) إنّ المعنى الوَضعي الأصلي لفعل "أخذ"، الذي سُمّيَ المعنى المركزي أو الأساس هو "تناول الشيء باليد" كما قال ابن منظور: «الأخذ: خلاف العطاء، وهو أيضا التناول. أخذت الشيء آخذه أخذا: تناولته، وأخذه يأخذه أخذا» (ابن منظور، لا تا: مادة أخذ). أمّا المعنى السياقي فهو ناتج عن النَظم اللفظي والمعنوي للكلمة وموقعها من ذلك النَظم يختلف مع المعنى المركزي فهو هنا بمعنى الإعدام أو السلب كما قيل «الأخذ: انتزاع الشيء وتناوله من مقرّه، وهو هنا مجاز في السلب والإعدام؛ لأنّ السلب من لوازم الأخذ بالنسبة إلى المأخوذ منه» (ابن عاشور، ١٩٨٤: ٢٣٣/٩). وحدد "فيرث" العناصر الأساسية لسياق حال الحدث اللغوي بما يلي:

1. Linguistic-context

www.SID.ir

Archive of SID

– المظاهر وثيقة الصلة بالمشاركين: أي: المتكلمين، والسامعين، وتتضمن أموراً ثلاثة: كلام المشاركين، أي: الحدث الكلامي الصادر عنهم. الحدث غير الكلامي عندهم، ويقصد به أفعالهم وسلوكهم في أثناء الكلام. شخصية المتكلم والسامع وتكوينهما الثقافي.

– الأشياء وثيقة الصلة بالموقف: وهي العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة البالغة، والسلوك اللغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي، نحو: مكان الكلام، وزمانه والوضع السياسي.

– أثر الحدث الكلامي في المشتركين: كالإقناع، أو الألم، أو الإغراء أو الضحك.. (بصل وبلّة، ٢٠١٤: ٦) يشير "تمام حسان" وهو من أهم اللغويين العرب المحدثين الذين تحدثوا عن السياق: «من خلال ربطه بين الشكل والوظيفة في حديثه عن المجاورة في السياق، أي: دراسة الكلمة عن طريق المجاورة في السياق بوصفها نواة الدلالة، أو لأنّها ذات معنى معجمي، وفرّق بين المعنى المعجمي والمعنى الوظيفي» (حسان، ١٩٨٦: ١٦٣).

ظاهرة التناوب[1]

التناوب في اللغة فيه معنى التبادل وتقسيم الأمر الواحد وتوزيعه، وفيه ـ أيضاً ـ معنى الإحلال، أي إحلال شيء محل شيء آخر وجاء أيضاً في لسان العرب: «تناوب القوم الماء، أي تقاسموه على المقلة وناب الشيء عن الشيء ينوب: قام مقامه.» (ابن منظور، لاتا: مادة نوب) وفي الاصطلاح هو إحلال كلمة ـ قد تكون اسماً أو فعلاً أو حرفاً ـ محل غيرها مما يناظرها، فتؤدي معناها. قيمة التناوب أنه لا يثبت المعنى الكامن في الكلمة الواردة في السياق فحسب، بل تتم في ذات الوقت عملية استحضار للكلمة المنوب عنها، وما ينجرّ عنها من معان، فتحدث عملية مزاوجة بين الكلمتين المنوب عنها والنائبة ومن ثمَّ تزاوج المعنيين، مما يؤدّي في النهاية إلى إثراء المعنى. (سليمان، ٢٠٠٨: ٩١) إنّ التناوب له أنماط متعددة منها التناوب في الأفعال والذي يسمّى بالتضمين النحوي والتناوب بين الحروف والتناوب بين صيغ الأسماء ويسمّى بالتناوب الوظيفي وفيما يلي نأتي بتعاريف كل منها بتفصيل.

التضمين النحوي

إنّ ظاهرة التضمين في العربية إحدى ظواهر التأويل فهو: «أن تقصد بلفظ فعل معناه الحقيقي ويلاحظ معه فعل آخر يناسبه ويدلّ عليه بذكر شيء من متعلّقاته» (السّامرائي، ٢٠٠٣: ١١/٣).

1. Alternation

www.SID.ir

Archive of SID

وقيل أيضاً «قد يشربون لفظاً معنى لفظٍ فيُعطونه حكمه، وذلك يسمّى تضمينا وفائدته: أن تؤدي كلمةٌ مؤدّى كلمتين» (ابن هشام، لا تا: ٣٠٥). والإشراب: يعني المخالطة، أي: أنّ اللفظ الواحد يختلط فيه معنيان، معنى يدلّ عليه اللفظ، والآخر يدلّ عليه السياق ومن العلماء من يطلق على التضمين مصطلح التوسّع فنجد ابن جنّي في الخصائص يقول: «اعلم أنّ الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر، وكان أحدهما يتعدّى بحرف، والآخر بآخر، فإنّ العرب قد تتّسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه، إيذاناً بأنّ هذا الفعل في معنى ذلك الآخر، فلذلك جيء معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه» (ابن جنّي، لا تا: ٣٠٨/٢). اعتبر ابن عاشور التضمين من بديع الإيجاز في القرآن الكريم وقال في تعريفه: «أن يضمن الفعلُ أو الوصفُ معنى فعل أو وصف آخر ويشار إلى المعنى المضمن بذكر ما هو من متعلقاته من حرف أو معمول فيحصل في الجملة معنيان» (ابن عاشور، ١٩٨٤: ١٢٣/١). وقد جعل التضمين لغرض تعبيري وفائدة معنوية، ومعنى الغرض التعبيري هو الإيجاز والاختصار من طريق التعبير بجملة واحدة بدل جملتين ومعنى الفائدة المعنوية هو إعطاء معنيين بفعل واحد بدل فعلين وذلك نحو قوله تعالى: ﴿**بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ**﴾ (الأنعام/٤١) كما نلاحظ أنّ فعل "تدعون" عدّي بحرف "إلى" في حال أن فعل "دعا" بالنسبة إلى مجيب الدعاء إنّما يتعدّى لمفعول به دون حرف جر كقوله تعالى في سورة غافر المباركة حيث قال: ﴿**أدعُوني أستَجِب لَكم**﴾ (غافر/٦٠) ومن كلام العرب "دعوتُ الله سميعاً" ولا تقول بهذا المعنى: "دعوتُ إلى الله" بمعنى "دعوتُ الله" إلا أنّه يمكن أن يصحح كلامه بدعوى التضمين. «ضمن "يدعون" معنى "يلجؤون" كأنّه قيل: فيكشف ما يلجؤون فيه بالدعاء إلى الله» (الأندلسي، ١٩٩٣: ١٣٣). «ولكي يحقق التضمين هذه الفائدة لذلك يجب ان تتوافر فيه جملة شروط هي: وجود المناسبة بين الفعلين، إذ اشترط النحاة وجود علاقة ومناسبة بين الفعل المتضمّن والفعل المضمّن بمعنى أن يكون أحدهما نتيجة لوجود الآخر أو أنّ أحدهما مترتب عن الآخر حيث يكون أحد الفعلين سبباً والآخر مسبباً له. لا بد من وجود قرينة تدل على ملاحظة الفعل الآخر ويؤمن معها اللبس. والقرينة قد تكون السياق نفسه ، أو وجود حرف الجر مع الفعل الذي يتعدى بنفسه، أو غيابه مع الفعل الذي لا يتعدّى إلا به» (الشمري، ٢٠٠٦: ٩).

التناوب بين الحروف

كما هو المعلوم، في هذا المستوى نريد مناقشة فكرة نيابة حرف عن آخر في الاستعمال القرآني، بمعنى آخر وضع حرف مكان آخر؛ قصداً لمعنى معين أو دلالة خاصة «فحروف العطف ـ وإن

www.SID.ir

Archive of SID

كانت جميعا تشترك في المعنى أو الوظيفة العامة، وهي الضيم والجمع ـ فالأصل أن لكل حرف منها معنى خاصًا، يستعمل فيه بأصل الوضع، وينفرد به عن غيره، بيد أنه قد يعدل عن هذا الأصل في رأي كثير من الدارسين في القديم والحديث فينوب حرف عطف عن آخر في معناه لعلة معينة» (عبد الكريم، ٢٠١٤: ٢٠١). إنّ كثرة استعمال الحروف وتنوعها في هذه السورة الكريمة يعطي للنص القرآني أسلوباً متميّزاً، إذ يدلّ على الثراء اللغوي في القرآن «والتناوب بين الحروف يشير إلى مدى القدرة على تطويع الحرف بحيث يأتي بديلاً عن حرف آخر دون إخلال بمعنى المراد، وقد تحدث إضافة دلالات جديدة إلى هذا المعنى» (سليمان، ٢٠٠٨: ١٢١). النقطة التي يجب الانتباه بها في عملية التناوب بين الحروف الجارّة هي أنّه لا يصحّ أن نقول إنّه لو كانت "على" تنوب عن "إلى" أو تستعمل بمعنى "إلى" لصحت نيابتها عنها دوماً، لذلك يجب أن يكون وراء هذا العدول نكت بلاغية وأغراض جمالية وكثيراً ما نجد هذا العدول عند أصحاب الأقلام في كتبهم وتآليفهم الأدبية الفنية؛ لأنّه «في الكلام الفني قد يختار المتكلم حرفاً على حرف، أو لفظاً على لفظ، لأداء معنى معيّن، أو لدلالة معيّنة، وربّما لم يستعمل الحرفين في معنى واحد كما يستعمله المتحدثون في أمورهم اليومية، أو قد يكون المعنى الذي يستعمله في حرف، مختلفاً عن مشابهه الذي يستعمله في حرف آخر، فالظرفية التي يستعملها بالباء تختلف عن الظرفية التي يستعملها بـ"في". والتعليل الذي يستعمله باللام يختلف عن التعليل الذي يستعمله بالياء، وهكذا» (السّامرائي، ٢٠٠٣: ٣/٩-١٠). ومثل هذا التناوب قوله تعالى: ﴿**إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ**﴾ (الأعراف/٥٧) إنّ الله تعالى عدل في هذه الآية الكريمة عن تعدية "سقناه" بحرف "إلى"؛ إذ الأصل في "ساق" أن يتعدّى بـ "إلى" لا بـ"اللام" والقرينة التي تسوقنا إلى هذا التناوب، الآية المتشابهة التي جاء بها الله تعالى في سورة الفاطر؛ حيث يقول: ﴿**فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ**﴾ (فاطر/٩) إذا أمعنّا النظر في سياق الآيتين نفهم أن سياق الآية في سورة الأعراف تنبني على الرّحمة والرضا وهذا عكس ما جاء في سورة فاطر التي وقعت في سياق مملوء بالتهديد والوعيد للكافرين لذلك جاء بـ"اللام" في آية الأعراف بدل "إلى" دلالة على العناية الربانية بهذا البلد.

التناوب الوظيفي

التناوب في الأسماء هو الشكل الثالث من أشكال التناوب فنعني بهذه الظاهرة ورود اسم في السياق الأدبي بديلاً عن نظير له أو إقامة صيغة مقام أخرى وهو أن يذكر اللفظ ويراد ما

www.SID.ir

Archive of SID

اشتق منه ولا يعني ذلك أن أي اسم من الأسماء يصلح لأن ينوب عن غيره، إذ لابد أن تكون هناك مشابهة أو علاقة بين الاسم النائب الوارد والآخر المنوب عنه. (سليمان، ٢٠٠٨: ١١٣) تجدر الإشارة إلى أنّ علاقة من علاقات مجاز المرسل هي التعلق الاشتقاقي وهو يعني: إقامة صيغة مقام أخرى وهو أن يذكر اللفظ ويراد ما اشتق منه من اسم الفاعل أو المفعول (الهاشمي، ٢٠٠٧: ٢٦٩) كقوله تعالى: ﴿**هَذَا خَلْقُ اللَّهِ**﴾ (لقمان/١١) والتقدير: مخلوق الله، وقوله كذلك: ﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ**﴾ (البقرة/٢٥٥) أي: بمعلومه حيث أطلق المصدر في الآيتين وأريد اسم الفاعل؛ لكننا في بحثنا هذا نتطرق إلى نيابة صيغ أخرى أيضاً ونقصد بالتناوب في صيغ الأسماء أن تقوم صيغة ما بأداء الدور الدلالي المنوط بصيغة أخرى وقد تكون هذه الصيغ مصدرين إما صريحاً وإما مؤولاً بالصريح أو التناوب بين الفعل وصيغ الأسماء وكذلك نسلط الضوء في هذا البحث على الصيغ التي كثر ورودها في السورة بحيث أصبحت عيّنة أسلوبية ومن النموذج الذي يؤيّد رأينا العدول عن ذكر مصدر الفعل المستعمل إلى ذكر مصدر فعل يلاقيه في الاشتقاق جمعاً بين معنيي الفعلين كقوله تعالى: ﴿**اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا**﴾ (الأعراف/١٦٤) كما نلاحظ، فقد جاء تعالى بالوصف (معذّب) لكن لم يجئ بمصدره، والقياس أن يقول: معذِّبُهم تعذيبا شديدا؛ لأن مصدر فعل عذَّب هو التعذيب كعلّم تعليم، أما عذاب فهو اسم مصدر (عذب) مثل خرّب خرابا فجاء بالوصف (معذّب) ولكن لم يجيء بمصدره فجمع معنيين في آن واحد والمعنى الله معذِّبهم فيعذبوا عذابا شديدا وقد جمع المعنيين: التعذيب والعذاب في آن واحد بمعنى آخر هنا "عذاباً" قد ساوى المصدر "تعذيباً" في المعنى وخالفه في الاشتقاق بخلوه من عدد من حروفه قد ورد مؤدّياً وظيفة نبذ التكرير ودفع التشبّع لجذب اهتمام السامع ومن ثم إفهامه.

الإطار التطبيقي في سورة الأنعام

تأخذ التناوب في سورة الأنعام المباركة أشكالا متعددة، إذ تظهر على مستوى بناء اللفظة المفردة، كما تظهر على مستوى الوظيفة النحوية، أما الأولى فقد تحدثنا عنها بإسهاب في بحثنا عن التضمين النحوي والتناوب بين الحروف وأما الثانية فإنها تدخل في نطاق ما أطلق عليه بالتناوب الوظيفي في الأسماء.

www.SID.ir

Archive of SID

أسلوبية التضمين النحوي

من الظواهر اللغوية المشهورة التي يلعب فيها المعنى دوراً بارزاً هو ظاهرة التناوب في الأفعال والتي يسمى أيضا بالتضمين النحوي. أخذ التضمين النحوي أنماطاً متعددة في هذه السورة الكريمة منها:

أ) تضمين فعل معنى فعل آخر

إن هذا النوع من التضمين هو أكثر أنواع التضمين انتشاراً في السورة حيث كثرة وروده فيها تجعله عينة أسلوبية ومنه قوله تعالى: ﴿**وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ**﴾ (الأنعام/٤) إذا أمعنا النظر في هذه الآية الكريمة نرى أنّ فعل "تأتي" لم يأت في معناه الحقيقي الوضعي؛ لأنّ كلمة "آية" ليست من الأشياء التي يستحق إسناد الفعل إليها، بل تضمن معنى فعل آخر وهو "بلغ". فعل "أتى" في أصل وضعه بمعنى "جاء" وإذا أخذ هذا الفعل مفعولاً به يضمن معنى "وافق" مثل أتيته على ذلك الأمر: أي وافقته وطاوعته. وقيل أيضاً: «المجيء كالإتيان، لكن المجيء أعم، لأن الإتيان مجيء بسهولة» (الأصفهاني، لا تا: مادة أتى). إنّ السياق الذي يدل على معنى التناوب في هذه الآية الكريمة هو السياق اللغوي؛ لأنّ المعنى المركزي أو الأساس في فعل "أتى" هو "جاء" لكن بسبب قرينة الإسناد أي: (علاقة الفعل والفاعل)، يعني (علاقة تأتي + من آية من آيات ربهم) وقرينة التخصيص أي: (التعدية في المفعول به) يعني (علاقة تأتي + ضمير "هم" البارز) يتبين لنا أن الفعل تضمن معنى "بلغ" في سياق النص القرآني، «والمراد بإتيانها بلوغها إليهم وتحديهم بها، فشبّه البلوغ بمجيء الجائي» (ابن عاشور، ١٩٨٤: ٧/ ١٣٤). وهذا التناوب يدل على أنّ الآيات بلغت إليهم دون أن يرتكبوا المشقة والصعوبة في قبولها ولو كان لهم البصيرة والتفكير السليم فلم يعرضوا عنها.

إنّ الكلمة في حال انعزالها لا تدل إلا على دلالات عامة، وإنّ تحديد المعنى ودقتهما نتيجة واضحة وملموسة لوضع الكلمة في جملة أو تركيب. على سبيل المثال قال تعالى: ﴿**فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ**﴾ (الأنعام/٣٠) إنّ الدلالة المعجمية للفعل "ذاق" لا تمثل إلا جانباً واحداً من دلالتها وهو«وجود الطعم في الفم» (الأصفهاني، لا تا: مادة ذوق)، لكن في هذه الآية الكريمة قد أخذت المعنى الآخر عن طريق خرق قوانين التتابع الأفقي العادية. ذاق العذاب أي: أحسّ به. وحاسة الذوق بها قوة تدرك خواص الأجسام الطعمية؛ لكنه هنا جاء مصاحباً مع كلمة "العذاب" والتعبير (ذوق العذاب) نوع من تراسل الحواس فهو «استعارة لإحساسه؛ لأنّ الذوق أقوى

www.SID.ir

Archive of SID

الحواس المباشرة للجسم، فشبه به إحساس الجلد» (ابن عاشور، ١٩٨٤: ١٨٨/٧). جاء التعبير بالذوق عن ألم العذاب للإشارة إلى أنّ المكذّبين يحسّون هذا العذاب كإحساس الذائق في غاية القوّة وهذا التعبير أولى وأزكى لبيان توبيخ الكفار وتقريعهم؛ لأنهم كانوا منكرين للبعث، لكن بعد الموت وعندما وقفوا على ربهم نسوا إنكارهم كأن لم ينكروا وخاطبهم الله وقال: أليس هذا البعث حقاً «والهمزة للاستفهام التوبيخي الإنكاري» (درويش، ١٩٩٩: ٥٣١/٢).

ب) تضمين فعل متعدّ بنفسه لفعل متعد بحرف الجر

ومن التضمين أيضاً تضمين فعل متعدّ بنفسه معنى فعل متعد بحرف الجر كقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ**﴾ (الأنعام/٥٧) في الآية الكريمة، عدّى ربّنا العليم فعل "كذّب" بحرف الجر "به" فلا يقال كذّبت بفلان بل يقال كذّبتُ فلاناً فلذلك يدلّ فعل التكذيب إذا عدّي بالباء على معنى الإنكار أي التكذيب القوي. إن قرينة النسبة أي: (معاني حروف الجر التي بها تنتسب معاني الأفعال إلى الأسماء) هي التي تساعدنا بأنّ هذا الفعل ابتعد عن المعنى الأصلي بسبب المعنى الزائف المضاف إليه وكما نعلم أنّ زيادة المبني لا محالة يؤدّي إلى زيادة المعنى، وبسببه جاء فعل "كذّب" متعدّياً بالباء ليرينا شدة الإنكار ومبالغته، بمعنىً آخر إن الآيات التي كذّب فيها (الله ـ سبحانه ـ والقرآن الكريم) تعدّى هذا الفعل بحرف الباء كقوله تعالى: ﴿**أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا**﴾ (النمل/٨٤) دلالة على صحة التوحيد وفساد الشرك. إنّ سياق الموقف هنا يشير إلى تكذيبهم أمراً عظيماً وهو القرآن الذي عبّر فيها بكلمة "بيّنة" و«البيّنة الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة» (الأصفهاني، لا تا: مادة بين).

أسلوبية التناوب بين الحروف

كما هو المعلوم، في هذا المستوى نريد مناقشة فكرة نيابة حرف عن آخر في الاستعمال القرآني، بمعنىً آخر وضع حرف مكان آخر؛ قصداً لمعنى معين أو دلالة خاصة إذا دققنا النظر في هذه السورة الكريمة نرى أن كثيراً من الحروف تتناوب في معناها وتتضمن معاني حروف أخر وهو ضرب من البلاغة والتوسع في المعنى.

أ) ورود "اللام" بمعنى "إلى"

النموذج لهذا التناوب قوله تعالى: ﴿**إِنِّي وَجَّهتُ وَجهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ حَنِيفَاً**﴾ (الأنعام/٧٩) يقول سيبويه: «ولام الإضافة ومعناها الملك واستحقاق الشيء» (سيبويه، ١٩٨٢:

www.SID.ir

Archive of SID

٢١٧/٤). أما في هذه الآية الكريمة، فنرى أنّه لم يأتِ "وجّهت وجهي إلى الذي" بل ترك هذا اللفظ وقام مقامه حرف "اللام" وهذا الأمر عدول عن القوانين المعتادة للفعل "وجّه"؛ لأنّ فعل "وجّه" يتعدّى إلى المكان المقصود بـ"إلى" ولكن هنا تعدّى بـ"اللام"؛ لأنّه انصرف لأجل ذلك الشيء. أمّا السياق المقامي في الآية الكريمة يدلّ على أنّ قوم إبراهيم ﷺ يتخذون الأصنام آلهة بينما الله سبحانه جلّ وعلا بريء عن الإشراك وهو الذي خلق هذه المخلوقات العظيمة لذلك شبهت حالة إعراض إبراهيم ﷺ عن الأصنام وقصده إلى إفراد الله تعالى بالعبادة بمن استقبل بوجهه شيئاً وانصرف عن غيره وجيء بالوجه؛ لأنّه أعظم مظهر لما في النفس من الإقبال أو الإعراض، أمّا تعدية فعل "وجّه" بـ"اللام"؛ لأنّ في هذا التوجّه إرضاء وطاعة بمعنى آخر «أنّ توجيه وجه القلب ليس إليه، لأنّه متعال عن الحيز والجهة، بل توجيه وجه القلب إلى خدمته وطاعته لأجل عبوديته، فترك كلمة "إلى" هنا والاكتفاء بحرف "اللام" دليل ظاهر على كون المعبود متعالياً عن الحيز والجهة» (الرازي، ١٩٨١: ٦١/١٣).

ب) ورود "الباء" بمعنى "في" الظرفية

كقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكم بِاللَّيلِ وَيَعلَمُ مَا جَرَحتُم بِالنَّهَارِ**﴾ (الأنعام/٦٠) إنّ حرف "الباء" في قوله "بالليل وبالنهار" ناب مناب "في"؛ لأنّك إذا قلتَ: الليل توقعتَ مباشرةً حرف "في" ولو قلتَ: النهار لانتظرتَ لفظ "في" أيضاً. إنّ السياق اللغوي يدلّنا باختيار حرف "الباء" مقام "في" وهنا يأتي الفرق بين ظرفية "الباء" وظرفية "في". إنّ ظرفية "في" ظرفية تضمن واحتواء، وظرفية "الباء" ظرفية ملاصقة واقتران ونقول "هو ينفق المال بالليل" و"هو ينفق المال في الليالي الحمراء" فإنّ معنى الأولى أنّ وقت الإنفاق هو الليل، أي يقترن الحدث بهذا الوقت وبصاحبه لا خصوص وقت هو أدخل فيه، وأمّا الثانية فعلى معنى أنّه يذهبه في الفسوق، فجعل الليالي وعاء يرمي فيه المال، بمعنى آخر إن الإنفاق حصل في خصوص أعماق الليل. (السامرّائي، ٢٠٠٣: ٨٠/٣-٨١) قيّد الله تعالى في هذه الآية بالظرفين جرياً على الغالب؛ إذ الغالب أنّ النوم في الليل والكسب في النهار، وخصّ النهار بالذكر دون الليل؛ لأنّ الكسب فيه أكثر؛ لأنّه زمن حركة الإنسان، والليل زمن سكونه وما جاء من هذه الآية الكريمة عدولاً عن حرف الظرفية إلى حرف الإلصاق قصد منه الدلالة على وقوع الوفاة (النوم) بأيّ جزء من أجزاء الليل وليس خصوص أعماقه كما يوحي به حرف الظرفية إيماءً إلى استغراق الزمن كله، ومثله العلم بما كسبت أيدي الناس بالنهار كل النهار لا خصوص وقت هو أدخل

www.SID.ir

Archive of SID

فيه كما قال الآلوسي: «هو الذي يتوفّاكم في جنس الليالي ثم يبعثكم في جنس الأنهر مع علمه جل شأنه بما ترتكبون فيها» (الآلوسي، لا تا: ١٧٤/٧).

ج) ورود "من" بمعنى "اللام" التعليلية

كقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِن إِمْلَاقٍ**﴾ (الأنعام/١٥١) ومِن حرف جرّ يفيد ابتداء الغاية الزمانية والمكانية وتأتي على خمسة عشر وجهاً لكن ابتداء الغاية غالب عليها حتى ادعى جماعة أنّ سائر معانيها راجعة إليه. (ابن هشام، لا تا: ٢٧٦/١) أصل الكلام في غير كلام الله أي البنية العميقة فـ"لا تقتلوا للإملاق"؛ لأنّ المفعول له حكمه النصب إن وجدت فيه الشروط الثلاثة أي: المصدرية، وإبانة التعليل واتحاده مع عامله في الوقت والفاعل ولا يمتنع الجر بالحرف الجار مع استكمال الشروط لكن تعيّن جره بحرف التعليل، وهو اللام (ابن عقيل، ١٩٩٩: ٢٨٤) إنّ صيغة (للإملاق) تمثل القاعدة السياقية المقالية التي تم العدول عنها، فإن إيثار صيغة النهي (لا تقتلوا) هذه ابتداءً فيه إشعار ضمني بتوجه السياق إلى مجيء مصدر لبيان سبب القتل، أي لا تقتلوا أولادكم للفقر لكن بعد تطبيق قانون التناوب بين الحروف قام حرف "من" مقام "اللام" في الجملة، وهذه النيابة تعد عدولاً وانحرافاً عن السياق أو المعيار السائد لحرف الجر الخاص للتعليل. قال ابن عاشور «و(من) تعليلية، وأصلها ابتدائية فجعل المعلول كأنّه مبتدئ من علّته والإملاق: الفقر، وكونه علّة لقتل الأولاد يقع على وجهين: أن يكون حاصلاً بالفعل، وهو المراد هنا، وهو الذي تقتضيه (من) التعليلية» (ابن عاشور، ١٩٨٤: ١٥٨/٨). أمّا السياق المقامي يشير إلى أنّ العرب في الجاهلية كانت تئد بناتهم إمّا للفقر الحاصل لهم وإمّا لتوقع ذلك وبذلك يكون المعنى: أن لا تقتلوا أولادكم الصغار لفقر حل ونزل ووقع بكم، فلم يأت الله تعالى هنا باللام؛ لأنّ العلّة المسبوقة بـ"من" موجودة قبل الحدث، وأنها تفيد الابتداء في وضعها أمّا العلّة المسبوقة بـ"اللام" فقد تكون واقعة قبل الحدث، وقد تكون مراداً تحصيلها وهي تفيد سبب حدوث الفعل. (السامرائي، ٢٠٠٣: ٧٨/٣)

د) ورود "ثم" بمعنى "الفاء"

تدل ثم العاطفة على الترتيب مع التراخي، وهو ما ذهب إليه جمهور النحاة. قال سيبويه في الكتاب «مررت برجلٍ راكبٍ ثم ذاهبٍ، فبَيَّن أن الذهاب بعده، وأن بينهما مهلة، وجعله غير متصل به فصيره على حِدَة. (سيبويه، ١٩٨٢: ٤٢٩/١) والمقصود بالترتيب مع التراخي: أن يقع المعطوف بعد المعطوف عليه، بعد انقضاء مدة زمنية طويلة بينهما، وقد تخرج "ثم" عن

www.SID.ir

Archive of SID

معناها الأصلي وينوب مناب حرف آخر منها قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ (الأنعام/١٥٣-١٥٤) والظاهر أنّ "ثمّ" واقعة موقع "الفاء"؛ لأنّ "ثمّ" في ذلك لترتيب الإخبار، ولا تراخي بين الإخبارين ومثل ذلك قول الشاعر:

كهَزِّ الرُّدَيْنِي تَحتَ العَجَاجِ جَرَى فِي الأَنابِيبِ ثُمَّ اضطَرَب

إذا الهزّ متى جرى في أنابيب الرّمح يعقبه الاضطراب، ولم يتراخ عنه (ابن هشام، لا تا: ١/١٠٥) كما قلنا في تعريف السياق بأنّه نموذج لغوي ينكسر بعنصر غير متوقع بإمكاننا أن نرى هذا الانكسار في الآية الكريمة، حيث تشير عبارة (نموذج لغوي) إلى القاعدة اللغوية التي يتم كسرها (المعدول عنه) كما تشير عبارة (عنصر غير متوقع) إلى العنصر المنحرف الذي يكسر هذه القاعدة (المعدول إليه). إنّ الكلمة المعدول عنها في الآية هي "فاء" والكلمة المعدول إليها هي "ثم" وهي عنصر غير متوقع؛ لأنّ «الأصل في "ثم" أن تكون للترتيب مع المهلة والتراخي في الزمان» (درويش، ١٩٩٩: ٣/٢٨٠). والذي دعانا إلى هذا العدول أنّ الإيتاء قبل التوصية بزمن طويل فكيف صحّ عطفه عليه بثمّ بينما لفظة "ثم" تقتضي التراخي ولازمه نزول التوراة بعد التوصية؟ وذلك بناء على أنها في هذه الآية ـ وفقا لرأيه ولما يراه كثيرون ـ للترتيب في الإخبار، لا في الحكم والوجود، والترتيب في الإخبار لا تراخي فيه ولا مهلة، وإنما هي أخبار متصلة من حيث الذكر والحديث فقط. (عبد الكريم، ٢٠١٤: ٢٣٥)

أسلوبية التناوب في الاسم

التناوب في الأسماء له أشكال متعددة في هذه السورة الكريمة وتعرض السطور التالية هذه الظاهرة بأنواعها المختلفة مع الاستدلال بالآيات التي اخترناها من هذه السورة.

أ) ورود مصدر بمعنى اسم الفاعل

كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ (الأنعام/٣١) وردت بنية التناوب في هذه الآية في سياق الحديث عن الكفّار الذين كذّبوا بما وعد الله به من البعث والقيامة ولقاء الله والذين كانوا يعتقدون بأن لا حياة بعد هذه الحياة، إلى أن جاءتهم الساعة والقيامة من غير شعور منهم لها. تشير المعاجم اللغوية بأنّ "بغتة" فَعلة من البغت، وهو مصدر بغته الأمر إذا نزل به فجأة وهو «مفاجأة الشيء من حيث لا يحتسب» (الأصفهاني، لا تا: مادة بغت) وفي لسان: البغت والبغتة: الفجأة وهو أن يفجأك الشيء من غير ترقب ولا إعلام. وقد بغته الأمر يبغته بغتاً.

www.SID.ir

Archive of SID

(ابن منظور، لا تا: مادة بغت) فهي مصدريةٌ في موضع الحال كما قال ابن عاشور: «وهو منتصب على الحال؛ فإنّ المصدر يجيء حالاً إذا كان ظاهراً تأويله باسم الفاعل» (ابن عاشور، ١٩٨٤: ١٩٠/٧). أي باغتين. ولا يقام المصدر مقام الفاعل إلاّ إذا وصف؛ لأنَّه حينئذ يفيد ما لا يدلُّ الفعل عليه كما قال ابن عقيل: «وقوع الحال مصدراً على خلاف الأصل؛ إذ لا دلالة فيه على صاحب المعنى وقد كثر مجيء الحال مصدراً نكرةً، ولكنّه ليس بمقيس؛ لمجيئه على خلاف الأصل. ومنه زيد طلع بغتة أي: باغتاً» (ابن عقيل، ١٩٩٩: ٣١٦-٣١٧). وأصل الكلام ـ في غير كلام الله ـ أي البنية العميقة للجملة: (حتى إذا جاءتهم الساعة باغتين أو باغتة) وبعد تطبيق قانون "نيابة مصدر نكرة" أصبح الكلام كما في الآية الكريمة. أمّا السياق المقامي فهو يرجع إلى الإخبار بالمصدر لقصد المبالغة، بمعنى آخر، انّ التنزيل العزيز رأى أنّ المحدّث عنهم "الكفار" قد بلغ في هذا الوصف مبلغاً لا يؤدّي المشتق مقداره وجعله هو نفس المعنى كما أنّنا إذا وصفنا شخصاً ما في عدالته قلنا: هو عدل أي: عادل وجعلناه هو نفس المعنى للمبالغة في الوصف؛ لذلك جاء التنزيل بغتة بدل باغتة أو باغتين مبالغة لسرعة مفاجأة للشيء.

ب) ورود مصدر بمعنى اسم المفعول

كقوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا هَـذِهِ أَنعَامٌ وَحَرثٌ حِجرٌ**﴾ (الأنعام/١٣٨) والحجر في كلام العرب: الحرام، يقال: حجرتُ على فلان كذا أي: حرّمتُ عليه. (الطبري، ٢٠٠١: ٥٧٨/٩) وحجر وصف لهما وهو فِعلٌ بمعنى مفعول أي: حجر بمعنى محجور كالذبح بمعنى مذبوح وأنّ أصله مصدر لكنه هنا وقع موقع الصفة لأنعام وحرث. (الآلوسي، لا تا: ٣٤/٨) فالملاحظ في هذا السياق هو الانزياح عن "المحجور" إلى "الحجر" أي الانزياح عن الوصف "اسم المفعول" إلى المصدر والقياس أن يقول: و"حرث محجور" لأنّ المصدر لا يمكن أن يكون نعتا للمنعوت؛ لأنّ المصدر هو حدث مجرد والعرب لا تقول ذلك إلا فيمن يكثر دون من لم يكثر «فإنّ قولهم "مررت برجل عدل" معناه أنّه مرّ برجل هو العدل، أي لكثرة ممارسته إياه واتصافه به، أصبح هو العدل نفسه» (السامرائي، ٢٠٠٣: ١٦٤/٣). جاء في "الخصائص": إذا وصف بالمصدر صار الموصوف كأنّه في الحقيقة مخلوق من ذلك الفعل وذلك لكثرة تعاطيه له واعتياده إياه وهذا معنى لا تجده ولا تتمكن منه مع الصّفة الصريحة. (ابن جني، لا تا: ٢٥٩/٣- ٢٦٠) فإذا قيل حرث حجر فكأنّه وصف بجميع الجنس مبالغة كما تقول: هي "أنعام" ممنوعة من الأكل والركب عليها ولا مانع لها في شرب الماء وأكل العشب وهي مختصة بالرجال دون النساء أو

www.SID.ir

Archive of SID

مختصّة بآلهتهم ونحو ذلك فوصف بالجنس أجمع تمكيناً لهذا الموضع وتوكيداً وأنّ المصدر إنّما يدل على فعله.

ج) ورود مصدر مؤوّل بدل مصدر صريح

الجانب التحويلي أو العدولي الآخر للاسم هو التمدد والتوسّع ونعني بالتمدد أو التوسّع في العربية، أنّه بدلاً من أن يكون المبتدأ والخبر، أو الفاعل وإلخ مفرداً يأتي جملة أو مصدراً مؤولاً، أي يحدث فيه توسّع وتمدد فبدلاً من أن تقول مثلاً: علمتُ قيامك، تقول: علمتُ أنّك قائم، فأنت بذلك تمدّد وتوسّع في الكلام. (المنصوري، ٢٠١٣: ٣٣٤) ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ (الأنعام/٣) إنَّ مصدرين "سرّكم وجهركم" يمثلان القاعدة السياقية التي تم العدول عنها، فإنَّ إيثار المصدر ابتداءً فيه إشعار ضمني بتوجه السياق إلى بناء نسق متتابع من المصادر الصريحة ويأتي قانونا الجوار والعطف ليعززا هذه الفكرة لدى المتلقي ففي ضوء هذين القانونين يصبح تجانس المتجاورين والمتعاطفين أمراً مألوفاً ومتوارداً في الأسلوب العربي، فيكون الحكم بوجود ظاهرة عدولية في الآية أمراً مقبولاً ومستنداً إلى قوانين لغوية معتبرة. فقد خرج السياق عن المتوقّع ـ لدى المتلقّي ـ فانزاح عن المصدر الصريح "كسبكم" إلى المصدر المؤول "ما تكسبون" وكان مقتضى السياق بموجب المشاكلة في التعبير أن يماثل بينهما، فيقول: "يعلم سرّكم وجهركم ويعلم كسبكم"؛ ولكنه انزاح عن المصدر الصريح إلى المصدر المؤول ليولد دلالة جديدة لا يفي بها المصدر الصريح لو استمر السياق على نسقه العام دون مخالفة التعبير. لماذا عدل القرآن الكريم عن المصدر الصريح إلى المصدر المؤول؟ إنّ المصدر المؤول يفيد الدلالة على الزمن، بخلاف المصدر الصريح، فإنّك إذا قلت: "صبرك خير لك" احتمل المضي والحال والاستقبال، لأنّه ليس في صيغته ما يدل على تحديد زمن. ثم إضافة إلى أنّه يستعمل للتمييز بين ما هو واقع، وما سيقع، يستعمل أيضاً للدلالة على المأمور به أو المنهي عنه، أو المدعو به. (السامرائي، ٢٠٠٣: ١٢٧/٣) إنّ السياق المقامي في الآية يدل على كون الإنسان مكتسباً للفعل والكسب هو الفعل المفضي إلى اجتلاب نفع أو دفع ضر، ولهذا السبب لا يوصف فعل الله بأنّه كسب لكونه تعالى منزهاً عن جلب النفع ودفع الضرر. (الرازي، ١٩٨١: ١٦٥/١٢)

www.SID.ir

Archive of SID

د) ورود اسم الفاعل بدل فعل مضارع

كقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ (الأنعام/٩٥) من المسوغات الأسلوبية التي نتكئ عليها في افتراض وجود ظاهرة التناوب في الآية، وقوع طرفي بنية التناوب تحت سلطة قانون العطف فقد قال تعالى أوّلاً "يخرج الحيّ من الميّت" بالفعل المضارع ثم قال بعدها "ومخرج الميّت من الحيّ" باسم الفاعل فأصل الكلام ـ في غير كلام الله ـ أو البنية العميقة للجملة "ويخرج الميّت من الحيّ" لكن عدل الله تعالى عن الفعل إلى الاسم ليتحول من جملة إلى مفرد وهي "ومخرج الميّت" تمثّل البنية السطحية ويمكن توضيح الانزياح في الآية الكريمة بالشكل التالي:

حسن المطابقة في السياق اللغوي (نمط مألوف)	يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ (المضارع)	يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ (المضارع)
انزياح عن السياق اللغوي(نمط غير مألوف)	يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ (المضارع)	مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ (اسم فاعل)

إنّ التعبير القرآني في هذه الآية يوظّف الفرق الدلالي بين الاسم والفعل أحسن توظيف؛ ليوافق به المقال المقام (مقتضى الحال)، حيث جاء التعبير عن الحيّ بالفعل المضارع في حين عبّر عن الموت بالاسم ويقتضي حسن المشاكلة والمطابقة في السياق اللغوي أن يعطف الفعل على الفعل والاسم على الاسم، والانزياح عن ذلك بالمخالفة بين الاسم والفعل له بعد دلالي يدرك من معرفة الفرق الدلالي بين الاسم والفعل وقد تقرر عند علماء اللغة والبلاغة أنّ «الفعل يدل على التحدد والحدوث، والاسم على الاستقرار والثبوت، ولا يحسن وضع أحدهما موضع آخر» (الزركشي، لا تا: ٦٦/٤). لم يأتِ الله في جملة المعطوف بالفعلية للمطابقة مع المعطوف عليه؛ لأن أبرز صفات الحيّ الحركة والتجدد فجاء معه بالصيغة الفعلية وأبرز صفات الميّت الهمود والسكون فجاء معه بالصيغة الاسمية. (السّامرائي، ٢٠٠٧: ١٦٤)

النتائج

بعد دراسة ظاهرة التناوب وتأثير السياق في كشفها، توصّل الباحثون من خلاله إلى عدد من النتائج، ومن أبرزها:

إنّ ظاهرة التناوب في الأفعال أكثر انتشاراً في السورة خلافاً مع الأنماط الأخرى، وتأتي هذه الظاهرة بدورها في أشكال مختلفة حيث إنّ تضمين فعل معنى فعل آخر غطى مساحة

www.SID.ir

Archive of SID

أكبر بالنسبة إلى أنماط أخرى من التناوب بين الأفعال أمّا التناوب بين الأسماء فهو نوع آخر من أنواع التناوب في السورة بحيث يأتي في النص القرآني بأشكال منها: التناوب على شكل التمدد والتوسّع لصيغة المصدر المؤول على المصدر الصريح والتناوب بين العدد والتناوب في المعنى الوصفي والتناوب على أساس التقابل أو التضام الوظيفي. أمّا التناوب بين الحروف فهو يعني إضافة معنى آخر إلى المعنى المفترض بوجود الحرف المقصود، حيث يؤدّي إلى معنى جديد فيأتي كثيراً للمبالغة والتأكيد. في الحقيقة إنّ الكلمة النائبة تكون أكثر دلالة على المعنى المراد من مثيله المنوب عنه وكان التوسع في المعاني، نقطة مشتركة من جمالية التناوب في الآيات الكريمة بأسرها، أما الغرض الرئيسي من التناوب في الآيات يختلف باختلاف المعاني والسياقات التي وردت فيها الآية. إذا كان التناوب في الأفعال فغرضه الرئيسي هو الإيجاز، لأنّ الفعل يكمن فيه معنى فعل آخر دون أن يدل عليه بشكل مباشر. كثيرا ما يكون الغرض الدلالي الجمالي في ورود مصدر بدل اسم الفاعل أو المفعول طلبا للمبالغة والتأكيد؛ لأنّ المصدر له مبالغة لا نراها في المشتق، زد على ذلك إنّ المصدر بسبب ما يحتوي من قلّة الحروف في بنيته يخلق الاقتصاد اللغوي ليصبح النص موجزاً. التمدد والتوسع هو الغرض الجمالي الآخر الذي نراه في نيابة مصدر مؤول بدل مصدر صريح وكذلك يبيّن المصدر المؤول لنا عناصر الجملة الأساسية من الفاعل/ المسند إليه والحدث/ المسند ويبيّن الفاعل من المفعول من نائب الفاعل ولا يبيّن ذلك المصدر الصريح وهو يميّز بين الصيغ ومدلولاتها أيضاً وفيه من التمييز بين المعاني ما ليس في المصدر الصريح. إنّ التوسّع والإيجاز الغرضان الرئيسيان للتناوب في النص القرآني. إنّ السياق مسألة ضرورية وحاسمة في معرفة التناوب؛ إذ تحمل الكلمة النائبة دلالات جديدة لا يمكن فهمها إلا بمعونة السياق، أمّا للوصول إلى معرفة التناوب في الآية فيلعب السياق اللغوي دوراً رئيساً فيها، مما تبيّن لنا أنّ السياق اللغوي يكشف عن فهم اللفظ النائب بما يجاوره من الألفاظ، بمعنى آخر نكشف عن الكلمة النائبة إمّا بعلاقتها بالكلمات السابقة واللاحقة لها وإمّا بمعونة القواعد المسلّمة في اللغة أمّا بالنسبة لهذا البحث فتبيّن لنا أن السياق اللغوي كثيرا ما يتمثل بالقواعد النحوية والتضام الوظيفي الذي يتمثل في القوالب اللفظية أو المصاحبات اللفظية خاصة إذا كان التناوب على مستوى الأفعال والسياق المقامي متمثل في أسباب نزول الآية، إذن يتضح لنا أنّ الأحداث اللغوية لا تقع بعيدة عن العناصر الأخرى أو منفصلة عنها وفي النهاية، إنّ السياق اللغوي يساعدنا على معرفة التناوب في النص والسياق المقامي يدلّنا على معرفة الغرض الجمالي لهذا التناوب وكلاهما يؤثر في الكشف عن المعاني الكامنة للكلمة أو الجملة النائبة في الكلام.

www.SID.ir

Archive of SID

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. ابن جني (لا تا). *الخصائص*. تحقيق: محمد علي النجار. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية.

٢. ابن عاشور، محمد الطاهر (١٩٨٤م). *تفسير التحرير والتنوير*. ج٧. تونس: الدار التونسية للنشر.

٣. ابن عقيل (١٩٩٩م). *شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك*. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة: دار التراث.

٤. ابن منظور، محمد بن مكرم (لا تا). *لسان العرب*. بيروت: دار صادر.

٥. ابن هشام، عبدالله (لا تا). *مغني اللبيب عن كتب الأعاريب*. تعليق: أبو عبدالله الجنوبي، ج٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٦. الآلوسي، محمود أبو الثناء (لا تا). *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*. ج٧، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٧. الأندلسي، أبو حيّان (١٩٩٣م). *تفسير البحر المحيط*. ج٤، بيروت: دار الكتب العلمية.

٨. بصل، محمد إسماعيل؛ وبلّة، فاطمة (٢٠١٤م). «ملامح نظرية السياق في الدرس اللغوي الحديث». *مجلّة دراسات في اللغة العربية وآدابها*، العدد٢٨، صص١-١٨.

٩. حسان، تمام (١٩٧٣م). *اللغة العربية معناها ومبناها*. القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب.

١٠. ـــــــــ (١٩٨٦م). *مناهج البحث في اللغة*. الدار البيضاء: دار الثقافة.

١١. درويش، محي الدين (١٩٩٩م). *إعراب القرآن الكريم وبيانه*. ج٢، دمشق: دار ابن كثير للطباعة والنشر.

١٢. الرازي، فخر الدين (١٩٨١م). *التفسير الكبير*. بيروت: دار الفكرة.

١٣. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم حسين بن محمد (لا تا). *المفردات في غريب القرآن*. ج١، الرياض: مكتبة نزار مصطفى الباز.

١٤. ربابعة، موسى سامح (٢٠٠٣م). *الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها*. الأردن: دار الكندي.

١٥. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله (لا تا). *البرهان في علوم القرآن*. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، بيروت: دار المعرفة.

١٦. السامرائي، فاضل (٢٠٠٣م). *لمسات بيانية في نصوص من التنزيل*. عمّان: دار عمار للنشر.

١٧. ـــــــــ (٢٠٠٣م). *معاني النحو*. ج١-٣، القاهرة: شركة العاتك لصناعة الكتاب.

١٨. ـــــــــ (٢٠٠٧م). *الجملة العربية تأليفها وأقسامها*. ط٢، عمّان: دار الفكر.

www.SID.ir

Archive of SID

١٩. سليمان، فتح الله أحمد (٢٠٠٨م). *الأسلوبية: مدخل نظري ودراسة تطبيقية*. القاهرة: دار الآفاق العربية.

٢٠. سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان (١٩٨٢م). *الكتاب*. تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٢، الرياض: مكتبة الخانجي.

٢١. الشمري، مجيد نوط العبيد (٢٠٠٦م). «النيابة وما يضارعها من المصطلحات النحوية». *مجلّة الفتح*، العدد٢٧، صص١-١٣.

٢٢. الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير (٢٠٠١م). *تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن*. تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. ج٩، القاهرة: دار الهجر.

٢٣. عبد الكريم، حجاج أنور (٢٠١٤م). «التناوب في المعنى بين الحروف العطف: دراسة في القرآن الكريم. *مجلّة جامعة أمّ القرى*، العدد١١، صص٢٠١-٢٤٩.

٢٤. عياد، شكري محمد (١٩٨٨م). *اللغة والإبداع مبادئ علم الأسلوب العربي*. القاهرة: طبعة انترنشنال.

٢٥. محمدرضايي، علي رضا؛ والحسيني، سكينة (١٤٣٨هـ). «دراسة لغوية وأسلوبية لسورة لقمان». *مجلة اللغة العربية وآدابها*، السنة١٢، العدد٣، صص٥٤٧-٥٦٧.

٢٦. المنصوري، أحمد المهدي (٢٠١٣م). «النظرية التوليدية التحويلية وتطبيقها على النحو العربي». *مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات*، مجلّد٢، العدد٢٩، صص٣٢٣-٣٤٤.

٢٧. الهاشمي، أحمد (٢٠٠٧م). *جواهر البلاغة*. تعليق: سليمان الصالح. بيروت: دار المعرفة.

www.SID.ir